رددت عليهم آمنة الحزينة دائمًا، الواجمة في أكثر الوقت حتى كأنها بلهاء غافلة، رددت عليهم آمنة التي رأت الشر بشعًا والإثم عريان والجرم منكرًا، فملأت نفسها من هذا كله وإذا هي سيئة الظن بكل إنسان، وإذا هي شديدة الإشفاق من كل شيء ومن كل إنسان، وإذا هي عابسة للنهار إذا أشرق عابسة للَّيل إذا أظلم، وقد اتخذت لنفسها من ظلمة الليل الحالكة ثوبًا كثيفًا ضافيًا فأسبغته عليها إسباغًا وحالت به بينها وبين كل نور وأمل وابتهاج وابتسام.

نعم، رددت عليهم آمنة هذه التي لا تمسك الدموع إلا ريثما ترسلها، ولا تبسط الوجه إلا ريثما تقبضه، ولا تقبل على شيء إلا ريثما تنصرف عنه، ولا ترى في اللعب إلا ثقلًا، ولا ترى في الخدمة والدرس إلا عناء وجهدًا. ويح أهل الدار! أيقبلون مني هذه الفتاة التي رددتها عليهم ويتسلون عن تلك الفتاة التي أخذتها منهم؟ ويحي أنا من أهل الدار إن لم يعرفوني ولم يألفوني كما عرفوا تلك الفتاة وألفوها! ولكنهم قوم كرام لا يضيقون بي ولا ينفرون مني ولا يلقونني إلا بالعناية والرعاية والعطف، أولم أتحدث إليهم بذلك المصاب العظيم الذي قد ألمَّ بنا فملأ قلوبنا حزنًا وبؤسًا؟ وإذن فهم يعزونني ويأسون جراح قلبي، وهم لا ينظرون إليَّ كما ينظرون إلى خادم يجب أن يعمل أو إلى رفيقة يجب أن تعين فتاتهم على ما في الحياة من جد ولعب، وإنما ينظرون إلى فتاة بائسة قد آوت إليهم فهم يؤوونها مكرمين لها مشفقين عليها، يؤثرونها بالرحمة والراحة والهدوء.

وخديجة … ويح خديجة! ما كنت أحسب أن فتاة نشأت في مثل ما نشأت فيه من نعيم، ودرجت على مثل ما درجت عليه من ترف وتعودت ألا تعيش إلا فرحة ومرحة، ما كنت أحسب أن هذه الفتاة تعرف كيف تصل إلى أعماق هذا القلب الحزين، وكيف تبلغ بغريزتها ما لم يكن بد من التجربة الطويلة العسيرة لبلوغه بالعقل والإرادة، إنها لتفهمني في غير سؤال، إنها لترحمني في غير تكلف، إنها لترثي لي في غير كبرياء، إنها لتنصرف بي عما ألفت من فرح ومرح ومن دعابة ولعب، إنها لتتحدث إليَّ حديث الفتاة العاقلة الرشيدة، إنها تشغلني عن همي بما تقص عليَّ من أمرها أثناء غيبتي وبما تقرأ عليَّ مما قرأت أثناء هذه الغيبة وبما تقرئني مما لم أشاركها في قراءته، إنها لتفتح لي أبوابًا ما كانت لتخطر لي على بال، إنها لتنبئني بنبأ عجيب لم أفهمه إلا بعد مشقة وجهد وتكرار! تنبئني بأنها قد أخذت تتعلم لغة أخرى تسميها الفرنسية فلا أفهم منها شيئًا، لغة أخرى! وكيف يكون ذلك؟ إني أعرف أن هناك لغة الريف التي كنت أتحدثها، ولغة